

المسار الحجاجي للخطاب القرآني بين المكي والمدني
دراسة تداولية مقارنة لنماذج من آيات الوحدةانية

**The argumentative Track of the Quranic discourse
between the Meccan and the Medinan**

- A comparative pragmatic study of examples of the verses of oneness -

طالب دكتوراه: محمد سلطاني

جامعة عمار ثلجي - الأغواط

soltanimed1986@gmail.com

- الملخص:

يحاول هذا البحث إثبات فكرة مركزية تتمثل في تتبع السيرورة الكبرى للبيان الحجاجي القرآني من خلال إدراك أسس العلاقة الوطيدة بين الحجاج القرآني والمقام وما بينهما تعالق، مستثمرا مقولة "المكي والمدني" باعتبارها مقولة سياقية تداولية بالأساس، كما أنها تستوعب الفكرة البلاغية الشهيرة "مطابقة الكلام لمقتضى حال المخاطب".

ويحاول البحث بيان أثر تحول المقام . بكل أبعاده . بين العهد المكي والعهد المدني على تحول البنية الحجاجية للقرآن الكريم وسيرورتها ، سواء على المستوى الكمي للحجج أو البعد الكيفي لها، محاولين الوقوف على بيان أسباب هذا التحول، مبينين ما يترتب على هذا الاختلاف المقامي من اختلاف في نوعية الحجاج ومنطلقاته وتقنياته.

- الكلمات المفتاحية: المسار الحجاجي؛ القرآن الكريم؛ المكي؛ المدني؛ المقام؛ المخاطب.

- Abstract :

This research tries to prove a central idea represented in tracing the major process of the Qur'anic argumentative statement through understanding the foundations of the close relationship between the Qur'anic pilgrims and the maqam and their interconnectedness, investing the saying "al-Makki and al-Madani" as a contextual and deliberative saying in the main, as it comprehends the famous rhetorical idea of "matching speech According to the state of, the receiver ".

The research tries to explain the effect of the transformation of the Context - in all its dimensions - between the Meccan and the Medinan covenant on the transformation of the argument structure of the Holy Qur'an and its process, whether on the quantitative level of the arguments or the qualitative dimension of them, trying to identify the reasons for this transformation, showing the consequences of this difference of shifts In the quality of The argumentative, its principles and techniques.

- **Key words:** The argumentative Track; the Meccan; the Medinan; the Context; the receiver.

مقدمة

لقد بهر القرآن الكريم عقول العرب وأدهش قلوبهم بما حازه من أفانين البلاغة السامية تلك البلاغة التي أغلقت دونها القلوب فاقتحمت أقفالها، وامتنعت عليها أعراف " الضمائر فابتزت " أنفالتها" كما يقول الرافعي، البلاغة التي تراعي حال كل مخاطب بما يناسب حاله المكاني والزماني والمعرفي ومعهوده الثقافي، فالقرآن يخاطب كل متلق بما يناسب مقامه وبلاعم حاله ويواجهه بشتى الحجج والدلائل، ففيه من كل مثل وفيه من كل نمط من أنماط الخطاب، وفيه من كل وسيلة لإيقاظ القلوب والعقول لما فيه من شتى المحاججات الموحية العميقة التأثير، وهو يخاطب كل قلب وكل عقل في كل بيئة وكل محيط، كما أنه يخاطب النفس البشرية في كل حالة من حالاتها، وفي كل طور من أطوارها. وإذا كانت "مقولة المكي والمدني" تشكل أحد المحاور الرئيسية في معرفة القرآن وفهمه، كما أنها من أهم علومه التي يجب على المفسر أن يكون على دراية بها للولوج إلى تفسير القرآن، وقد نقل السيوطي عن أبي القاسم النيسابوري في كتاب التنبيه على فضل علوم القرآن: "من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة و ما نزل بالمدينة"¹.

هذا، ونطمح في هذه الدراسة . على مستوى الاختيار المبدئي على الأقل . إلى محاولة إدراك التباين الحجاجي بين القرآن المكي والقرآن المدني، وإدراك الأسباب الماثلة خلف هذا الاختلاف في الأسلوب الحجاجي في القرآن ولعل هذا يأتي ضمن ما وقف عليه العلماء من ملحظ مهم يتمثل في التفتن إلى العلاقة بين الخطاب القرآني وشروط نزوله، إذ نزل الخطاب القرآن وفق معهود العرب في كلامهم، وفي تعالقه المنسجم مع المناسبة المباشرة وغير المباشرة، وتعالقه المنسجم كذلك مع تباين المكان والزمان والمخاطب بين المكي والمدني من جهة، وما بين الخطاب القرآني واستيعابه للظروف الإنسانية للناس كافة في كل زمان ومكان من جهة أخرى.محاولين الإجابة على إشكالية مركزية قلما توجهت إليها أقلام الباحثين في القديم ولا في الحديث، وهي هل للاختلاف بين العهد المكي والعهد والمدني- بمعنى الزمان والمكان والمخاطب- أثر على خصائص الخطاب الحجاجي في القرآن الكريم ؟ وهل استجاب القرآن كخطاب لنوع المتلقي خلال ثلاث وعشرين سنة من التنزيل المنجم، خاطب فيها شرائح متنوعة من الناس من منكرين أميين وأهل كتاب ومنافقين ومؤمنين...؟

1- المكي والمدني ونزول القرآن منجما:

تنبثق الأهمية الكبرى للمكي والمدني من ناحيتين اثنتين في تصورنا، أولها نابعة من مضامين القرآن نفسه، والثانية من مسيرة نزوله، أما الأولى فإن القرآن قد تميز عن كل الرسائل السماوية السابقة بكونه نزل منجما، وقد كان التجسيم القرآني مثار تساؤل وتشكيك المشركين إبان نزول القرآن في مكة، كما كان مثار تساؤل الكفار من أهل الكتاب، وربما يكون المشركون قد استعانوا بأهل الكتاب على إثارة هذا التساؤل من أجل التشكيك في صحة القرآن وهو ما جاء في قوله: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ نُمِيتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (الأنبياء: 32)"

وواضح من السياق المقالي للآية أن الذين أثاروا الشبهة هم "الذين كفروا" أي اليهود استناد إلى أن هذا الاصطلاح القرآني كان مقصودا به - في بداية التنزيل على الأقل - أهل الكتاب في حين كان أهل مكة يسمون غالبا بـ: المشركين" أو الذين أشركوا".

وسواء أخذنا بهذا المرجح المعتمد على الاصطلاح القرآني أو لم نأخذ به، واعتمدنا على المفهوم العام للكفر في تعالقه بمفهوم الشرك؛ فإن في الحالتين يبقى لأهل الكتاب من اليهود خاصة اليد الطولى في إثارة هذه الشبهة والاعتراض على نزول القرآن منجما، وعدم نزوله جملة واحدة، وهذا أمر مبرر ومنطقي لأن أهل الكتاب هم الذين كانوا أصحاب خبرة بنزول الكتب السماوية، وكيفية نزولها، وقد بنوا هذا الاعتراض على مقارنة القرآن بالتوراة والإنجيل خاصة، والكتب السماوية عامة في نزولها جملة واحدة، فكان نزول القرآن . بهذه الطريقة مخالفا لكل الكتب السابقة . مثار تساؤل لهم جعلوه شبهة للطعن فيه صدقه، ويزيد من دعم هذا الترجيح أن مشركي مكة لم يكن لهم سابق عهد بنزول الكتب، إذ كانوا أمة أمية، ليس لهم كتاب سماوي، فلا وجه لأن يكون مثار هذه الشبهة نابعا منهم دون الاستعانة بأهل الكتاب لما ذكرناه من جهة، ولأن المشركين كانوا أحرص الناس على استعانة بأهل الكتاب من أجل التشكيك في القرآن وإلقاء الشبه في طريقه، ولذلك أمثلة كثيرة معروفة ومتواترة روتها كتب السيرة وكتب أسباب النزول لا نريد أن ننقل كاهل هذا البحث بذكرها.

وقد أجاب القرآن على هذه الشبهة بآيتين أحدهما في بداية التنزيل المكي والأخرى في آخره، وهاتان الآيتان تتضمنان حجتين مباشرتين لرد هذا الاعتراض، أما الحجج غير المباشرة فهي كثيرة مما يمكن أن تستنبط منهما إشارة وتلميحا، فأما الحجة الأولى فهي قوله تعالى: {كَذَلِكَ لَنُنْشِئَ بِهِ فُؤَادَكَ} فهو أن ذلك أدعى لتثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، بكل ما يعنيه التثبيت من الرد والتسليّة والنصر والتحلي بالصبر ...

وأما الحجة الثانية في رد هذه الشبهة فهي قراءته على الناس بالتدرج وعلى مكث، وذلك في قوله تعالى: {وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِنُقَرِّأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ} بكل ما يعنيه هذا المكث من "تؤدة وترسل بأن تقرأ منه كل نجم في وقته الذي أنزلناه فيه مدة ثلاث وعشرين سنة، مفرقاً بحسب الوقائع لأنه أتقن في

فصلها، وأعون على الفهم لطول التأمل لما نزل من نجومه في مدة ما بين النجمين لغزارة ما فيه من المعاني، وكثرة ما تضمنه من الحكم، وذلك أيضاً أقرب للحفظ، وأعظم تثبيتاً للفؤاد، وأشرح للصدر، لأن أخبار الحبيب إذا كانت متواصلة كان المحب كل يوم في عيد، بهناء جديد².

ويلاحظ من هاتين الآيتين أن الحجة الأولى تتميز بخاصيتين؛ فهي دلالة نفسية من جهة، وخاصة بتثبيت مبلغ الوحي صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى، على أن الأهمية الكبرى التي يمكن استنباطها من هذه الآية مما له علاقة وطيدة بالخاصية الحجاجية للقرآن هو أن السبب الأبرز الذي رد به القرآن على شبهة الخصوم هي أنه لما كان القرآن كتاب حجاج واحتجاج بكل ما يعنيه من تفاعل بين أطروحات القرآن واستقبال المتلقين لها واعتراضاتهم عليها وإجابة القرآن على هذه الاعتراضات بمختلف الحجج والبراهين.. فإن هذا التفاعل لا يتأتى إلا بتنزيل القرآن مفرقا، إذ إن القرآن كما يقول الطباطبائي: "كتاب بيان واحتجاج يحتج على المؤلف والمخالف ببيان ما أشكل عليهم أو ما استشكلوه على الحق والحقيقة بالتشكيك والاعتراض ويبين لهم ما التبس عليهم أمره من المعارف والحكم الواقعة في الملل والأديان السابقة وما فسرها به علماءهم بتحريف الكلم عن مواضعه كما يظهر بقياس ما كان يعتقد الوثنيون في الله تعالى والملائكة والجن وقديسي البشر وما بثوه من معارف المبدأ والمعاد... وهذا النوع من البيان والاحتجاج لا يستوفي حقه إلا بالتنزيل التدريجي على حسب ما كان يبدو من شبههم ويرد على النبي صلى الله عليه وسلم من مسائلهم تدريجيا ويود على المؤمنين أو على قومهم من تسويلاتهم شيئا بعد شيء وحيناً بعد حين"³.

وبهذا التفسير يكون القرآن قد ردّ سبب تنزيل القرآن إلى هذا المبرر البياني الحجاجي بما يقتضيه من أطروحات والإجابة عليها والنزاع فيها والتحاجج في مضامينها، الأمر الذي يثبت فؤاد النبي عليه السلام بما يلقاه من شبهات الخصوم وتشكيكاتهم؛ فيكون التدرج في البيان الحجاجي أنسب لهذا التثبيت، وقد جاءت الآية بعدها تفيد هذا المعنى بتمامه في قوله: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِهِ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} والمثل يقصد به الوصف أي لا يأتون بوصف فيك في غيرك حادوا به عن الحق أو أسأؤوا تفسيره إلا جئناك بالحق فيه، أو بما هو أحسن الوجوه في تفسيره وتأويله والرد عليه⁴.

والآية بهذا الغرض هي بيان للآية قبلها، وهي تفسير للمقصود من تثبيت فؤاده عليه السلام وبهذا يكون الآيتان قد التأمتا لتجيب عن شبهة الخصوم من وجهين أحدهما راجع إلى النبي وهو تثبيت فؤاده وثانيهما راجع إلى الناس فيما يردونه من الشبهات والأوصاف. وقد عبر عنها القرآن بالمثل مراداً بها الشبهة. للطعن في رسالته سواء كانت الأوصاف باطلا محضاً فيدفع أو كان غموضاً أو حقا محرفا فيفسره القرآن ويقومه. والآيتان سواء كانت أحدهما مفسرة للأخرى أو كانت معطوفتين على بعضهما ففي الحالتين هما مسوقتان لغرض واحد هو الرد على قولهم {وَلَا أَنزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً} وهو ما أكدته آية الإسراء المتأخرة في النزول عن الفرقان في قوله: {وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى

الناس على مكث ونزلناه تنزيلا} ففيها أيضا داللتان أحدهما تربية في قوله {على مكث}، والأخرى دلالة عامة لتثبيت المتلقين وهذا ما دل قوله :{لنقرأ على الناس} كما أن قوله تعالى في إتمام آية الفرقان {ورتلناه ترتيلا} ليس المقصود بها الوصف وحده بقدر ما هي حجة إضافية لتقيد شبهة الخصوم المعارضة على نزول القرآن منجما، إذ من معاني الترتيل هو "نزول بعضه في إثر بعض"⁵. وهذا التتابع في التنزيل هو الذي ينسجم مع حال المخاطبين ومقتضى حالهم، فيكون ذلك أدعى للنزول على حسب الحوادث والدواعي وجوابات السائلين" كما نزوله بهذا التنجيم الموافق لمقتضى حال المخاطبين أدعى إلى التحدي بأقله فضلا عن كثيره فضلا عنه جميعه وهو ما قصده الزمخشري بقوله:"إن تنزيله مفرقا وتحديهم ببعض تلك التفاريق كلما نزل شيء منها، أدخل في الإعجاز وأنور للحجة من أن ينزل كله جملة"⁶.

ويزيد الجد الوزير الأمر وضوحا مبينا عظيم رعاية المقام في القرآن وجليل عنايته به بقوله:" إِنَّ الْقُرْآنَ لَوْ لَمْ يَنْزَلْ مُنْجَمًا عَلَى حَسَبِ الْحَوَادِثِ لَمَا ظَهَرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِهِ مُطَابَقَتُهَا لِمُقْتَضَى الْحَالِ وَمُنَاسَبَتُهَا لِلْمَقَامِ وَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ إِعْجَازِهَا"⁷.

وإذا كان هذا التنجيم القرآني عامة مقصودا به تثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم من جهة، ورعاية لمقتضى حال المخاطبين، فيما يطرحونه من إشكالات أو شبه أو اعتراضات من جهة أخرى، تتبين بها الحجة وتتدرج به الشبه، فإن في التنجيم القرآني بين المكي والمدني خاصة مقصودا به التمييز بين المكي والمدني وما حدث فيهما من تغير كبير وبون شاسع من حال إلى حال ومن وضع إلى وضع لدليلا أوضح وبيانا أصرح على رعاية القرآن لمقتضى حال المخاطبين، ومناسبة المقام، وكفي للتدليل على ذلك أن جميع علماء قد جعلوا معرفة علم المكي والمدني شرطا لمن أراد أن يفسر القرآن ضمن علوم أخرى

2- الحجاج القرآني بين وحدة الموضوع واختلاف المخاطب:

ربط علماء علوم القرآن المكي والمدني باعتبارات عديدة أهمها مراعاة أحوال المخاطبين، و من ذلك اعتبارهم النصّ مكيا إذا وقع خطابا لأهل مكة، ومدنيا إذا وقع خطابا لأهل المدينة، وعليه يحمل قول من قال: " إِنَّ مَا صَدَّرَ فِي الْقُرْآنِ بِلَفْظِ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) فَهُوَ مَكِّي، وَمَا صَدَّرَ فِيهِ بِلَفْظِ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) فَهُوَ مَدَنِي، لِأَنَّ الْكُفْرَ كَانَ غَالِبًا عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ فَخُوطِبُوا بِ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ"، وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُمْ دَاخِلًا فِيهِمْ، وَلِأَنَّ الْإِيمَانَ كَانَ غَالِبًا عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَخُوطِبُوا بِ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"، وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُمْ دَاخِلًا فِيهِمْ أَيْضًا، وَأَلْحَقَ بَعْضُهُمْ صِيغَةَ "يَا بَنِي آدَمَ" بِصِيغَةِ "يَا أَيُّهَا النَّاسُ"⁸.

على أن ما يحتاج إلى بيان في هذه العبارة للزرقاني. إذا أردنا قراءتها وفق معيار "وحدة الموضوع واختلاف المخاطب". هو أن أهل مكة لما كان الكفر غالبا عليهم خوطبوا بـ"يا أيها الناس" وغيرهم داخلا فيهم أي المؤمنون بوصفهم جزءا من الناس، غير أن عبارة "لما كان الكفر غالبا عليهم" تعني

أن خطابهم خاص بموضوع العقيدة بأصولها الكبرى وهو التوحيد والمعاد والنبوة، ومنهم من يضيف أصول الأخلاق وقصص الأنبياء وإن كانت داخلة في الأصول الثلاثة بكونها وسيلة لمعرفة العقيدة وترسيخ لها واحتجاج عليها.

ويدخل في هذا الخطاب في العهد المكي كل من كان غير مؤمن بهذه الأصول الثلاثة مجتمعة أو واحدة منها منفردة، وإن لم يوجد في الواقع من يوحد الله وينكر المعاد أو يؤمن بالمعاد ويشرك بالله أو يؤمن بالله وحده وينكر النبوة، فكان هذه الأصول الثلاثة كل واحد منها متعلق بالآخر، وكلها تدخل ضمن معرفة الله والإيمان به حق الإيمان. ولذلك كان غالب الخطاب القرآني في العهد المكي هو في هذه الأصول الثلاثة، ولما يخرج الخطاب عنها إلى غيرها من موضوعات الأسس الأخلاقية العامة أو قصص الأنبياء وإن كانت هي الأخرى من اقتضاءات العقيدة وأحد سبل في معرفتها.

أما في القرآني المدني فقد تغير المخاطبون نوعيا وكميا وتغير أسلوب خطابه فضلا عن موضوع خطابه أيضا؛ فمن الناحية النوعية فقد قام أهل الكتاب مقام المشركين من جهة، كما استجد عنصر جديد ظاهره الإيمان وباطنه الكفر وهم المنافقون، وصار للمؤمنين كيان مستقل فصاروا يخاطبون بـ: "يأيها الذين آمنوا" بعدما كانوا في العهد المكي من القلة بحيث لا يخاطبون إلا ضمن خطاب النبي صلى الله عليه وسلم وأحيانا قليلة بـ: "الذين آمنوا" ولا تأت إلا حديثا عنهم دون مخاطبتهم.

على أن للمسألة كلها وجها آخر بالنظر إلى تقسيم المتلقي إلى خطاب الناس وخطاب المؤمنين وهو أن القرآن المكي لما كان خطابا موجها أصالة إلى أهل الشرك والوثنية جاء ندائه عاما ومضمونه عقديا غالبا، أما القرآن المدني فإنه لما كان خطابا موجها إلى موحدتين أي مؤمنين بالديانات التوحيدية كان خطابا تصنيفيا خاصا فجاءت نداءاته (مخاطباته) خاصة مثل، يا أهل الكتاب، يا بني إسرائيل، يا أيها الذين آمنوا، رغم التفاوت الكبير بين إيمان أهل الكتاب وإيمان المسلمين، إذ إن أهل الكتاب رغم كفرهم العقدي في عدم إيمانهم بنبوة النبي مع إيمانهم بنبوة الأنبياء السابقين إلا أن القرآن في حاجه معهم اتخذ هذا المشترك العقدي بينهم وبين المسلمين المتمثل في الإيمان بوحداية الله والإيمان بالمعاد عامة سبيلا لخطابهم ضمن الكيان المؤمن لذلك أستند غالبا إلى إفحامهم بناء على ما يؤمنون به من كتب سماوية وما جاءتهم بها كتبهم، فكفرهم كان بالشريعة الخاتمة التي هي مصدقة لشريعة التوراة والإنجيل ومهيمنة عليها، ولذلك كان علماء علوم القرآن على حق عندما جعلوا القرآن المكي خطاب عقيدة والقرآن المدني خطاب شريعة، ويبقى بعد ذلك الارتباط وثيقا بين العقيدة والشريعة.

ومن أجل ذلك نجد التركيز على قصص أهل الكتاب في القرآن جاءت متوافقة ما سبق بيانه من الانسجام الموضوعي بين المكي والمدني؛ ففي المكي قصص بني إسرائيل منظورا إلى عنصر الانحراف العقدي فيه أكثر، أما في المدني فقصاص بني إسرائيل منظورا فيه إلى عنصر الانحراف التشريعي أكثر.

وبناء على ذلك فقد اختلف الحجاج القرآني في العهد المدني مراعاة لنوعية المخاطب ومعهوده العقدي، فالمؤمن يخاطب بالتشريع بناءً على إيمانه السابق بالعقيدة فجاءت اقتضاءات العقيدة العملية متمثلة في العبادات والأحكام والأخلاق والمعاملات.... والكافر يخاطب بالعقيدة زيادة في إقامة الحجة والإفحام والإعذار.. وأهل الكتاب يخاطبون بناءً على انحرافهم عن كتبهم السماوية.

وهذا التقسيم بحسب المخاطب مع مراعاة أثر ذلك في طبيعة النص ولغته، طور متقدّم من أطوار الربط بين النص والسياق لدى أصحاب علوم القرآن. وهو ما انعكس على تفسيرهم للآيات القرآنية، اتساقاً مع مراعاتهم لموضوع الخطاب والمخاطب على حد سواء.

3- الحجاج القرآني بين وحدة المخاطب واختلاف الموضوع

كما أن القرآن الكريم يراعي المخاطبين وطبيعتهم ومعهودهم العقدي والفكري والسلوكي فإنه بالمقابل يطرح مضامينه وموضوعاته انسجاماً مع هذا المخاطب فإذا كان المخاطب مشركاً ومنكراً للتوحيد حاجه في أصول العقيدة وإذا كان المخاطب منحرفاً في جانب التشريع السلوكي حاجه في ما يتعلق بالتشريع السلوكي والأخلاقي، ومصادق ذلك أن القرآن المكي ظل ما يقرب من ثلاث عشرة عاماً يتحدث عن قضية واحدة لا يكاد يتجاوزها وهي قضية العقيدة بأصولها الكبرى وهي الوجدانية والمعاد والنبوة، وكل ما عرض القرآن من أبعاد أخلاقية وقصص للأنبياء وأمهم وقضايا خلق الإنسان فإنما هي استدلال للعقيدة وترسيخ لها... أما المدني فقد كان تركيزه على أبعاد العقيدة العملية أي ما تقتضيه العقيدة من سلوك تشريعي عملي واقعي، ويندرج ضمن هذا الإطار خطاب أهل الكتاب خطاباً تشريعياً أي خطاب ما تقتضيه العقيدة من أحكام عملية، ويتجلى بعدين أولهما أن أهم قضية خلافية بين القرآن وأهل كتاب كانت هي إنكار النبوة غير أن هذا الإنكار لم يكن إنكاراً للنبوة العامة وإنما إنكاراً للنبوة الخاصة أي نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وإنكارها على الرغم من أنه إنكار عقدي إلا أن القرآن طرحه طرحاً تشريعياً باعتبار أن إيمان أهل الكتاب بالنبوات السابقة مما يقتضي الإيمان بالنبوة الخاتمة لاسيما وقد جاءت النصوص تنرى في التوراة والإنجيل تثبت الرسالة الخاتمة، والبعد الثاني أن القرآن يخاطب أهل الكتاب مبيناً لهم أن انحرافهم في الشريعة بتحريفها من جهة ونسيانها من جهة أخرى هو سبب كفرهم وعدم إيمانهم بما أثبتته كتبهم من دلائل النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم ورسالته.

ولأن القرآن كتاب عملي يربط العقيدة بما تقتضيه من عمل وشريعة وأخلاق؛ فإنه ظلّ يخاطب كل مخاطب بما يرتقي به إلى عقيدة الإسلام السامقة لذلك لما رسّخ العقيدة في ضمير المؤمنين ووجدانهم رسوخاً متيناً رتب وألحق بذلك الأصل الأصيل كل ما ينبثق منه من أصول العبادات كالصلاة والإنفاق وأصول الأخلاق كتركيز النفس وصلة الأرحام والبر إلى الوالدين وأداء الأمانة... هذا كله في القرآن المكي أما في العهد المدني فقد بين ما تقتضيه هذه العقيدة من أبعاد عملية تتمثل في تشريع الأحكام

والحدود والمعاملات الاقتصادية والتجارية والاجتماعية والعلاقات الدولية وأحكام الجهاد؛ وهو الجانب التنفيذي من العقيدة، وظل القرآن المدني يربط كل تشريع وكل حكم شرعي يفرضه على المؤمنين يربطه بالعقيدة أي بالإيمان بالله واليوم الآخر تارة وبالإيمان بالله والرسول تارة أخرى.

أما المخاطب المنكر كليا وهم المشركون فقد ظل القرآن يدعوهم إلى الإيمان بهذا الأصل الأصيل وهو الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وإن قل خطاب هذا الصنف بشكل كبير في العهد المدني ما دام بيان العقيدة قد استوفى الحديث عنه في العهد المكي، ومادام سلطان الحجة لم يجد نفعا مع قوم لم يبق معهم إلا حجة السلطان، وهو الأمر الذي جاءت ثماره يانعة بعد ثمان سنوات لما فتحت مكة معقل الشرك أبوابها للتوحيد وهي التي وقفت في وجهه بحجة القوة بعدما أعوزتها قوة الحجة قبل ذلك.

أما المخاطب المعاند ويمثله أهل الكتاب من اليهود والنصارى . ومن وراءهم كل معاند . فقد خاطبهم القرآن المكي في العقيدة معروضة في مرآة تاريخهم الطويل مع أنبياءهم وموقفهم من هدى الله كما عرض انحرافهم في الشريعة والأخلاق والأحكام في العهد المدني، وقد كان من مقاصد القرآن المكي بالدرجة الأولى عرض تاريخ أهل الكتاب من أجل إقناع المشركين الذي كانوا يتمنون أن يأتيهم رسول منهم فيتبعونه كما بعث في غيرهم من أمم أهل الكتاب كما في قوله عز من قائل: "وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (فاطر 42) وقوله تعالى: ((وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)) (طه 134).

وقوله: ((وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)) (القصص 47).

أما عرض قصص أهل الكتاب وخطابهم في القرآن المدني فمن أهم مقاصده هو عرض انحرافهم حتى يحذرهم المؤمنون أن يسلكوا سلوكهم وإقامة للحجة عليهم. ذلك أن المخاطب الأصلي في القرآن المدني هم المؤمنون أساسا؛ ولذلك تمثل الآيات المتحدثة عنهم عددا كبيرا مقارنة مع الآيات المتحدثة عن أهل الكتاب ففي حين تبلغ الآيات المتحدثة عن المسلمين ما يقرب من ألف آية (989 بإحصاء بازركان⁹)، مع الأخذ في الاعتبار الأحكام التربوية والأخلاقية والفقهية والجهادية لأنها متعلقة بهم دون غيرهم . لا تتجاوز الآيات المتحدثة عن أهل الكتاب الثلاثمائة آية (293 بإحصاء بازركان نفسه¹⁰)، وحتى إن أضفنا لهم الآيات المتحدثة عن المنافقين بوصفهم تابعين لهم ويأتمرون بأمرهم فإنه رغم ذلك . لا يتجاوز العدد 522 (بنفس الإحصاء¹¹). وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مركزية خطاب المؤمن في القرآن المدني على غرار مركزية خطاب الكافر في القرآن المدني.

على أن التمايز في الخطاب القرآني سواء على مستوى المضامين أو المخاطبين أو على مستوى الأسلوب لا يوجب الفصل التام بن المكي والمدني بقدر "ما يوجب الاعتبار بأن المقصد الحق من فترتي مكة والمدينة بالنسبة للقرآن الكريم، إنما هو الدلالة على وجود طورين متكاملين في تكوين النموذج الإنساني الموحد في المنهج القرآني، الذي يبدأ بغرس المقومات الإيمانية في عقيدة الإسلام، ثم يتبعها بالطور العملي في مرحلة الامتثال والاستجابة للأحكام التشريعية"¹².

فالعهد المكي كان إعدادا إيمانيا ضخما في الجانب الفردي من أجل القيام بالإيمان الجماعي الذي أتى ثماره يانعة في المرحلة المدنية، ولذلك رأينا أن معظم القرآن المدني هو حديث عن المؤمنين بوصفهم المخاطب المركزي في القرآن المدني أما أهل الكتاب وأتباعهم من المنافقين فإن الحديث عنهم جاء عرضا ليبين للمؤمنين موقف أعداءهم من الرسالة الخاتمة التي اجتباها الله بها، وبذل على ذلك أن المؤمنين من أهل الكتاب كانوا من القلة بحيث لا يتجاوزون العشرات وإذا صح هذا فإن تركيز القرآن على أهل الكتاب في بداية القرآن المدني لا نجد له تبريرا كافيا . فيما نعلم . إلا ما قاله سيد قطب بقوله: " وهو أن الله - سبحانه - علم أن أجيالاً من هذه الأمة المسلمة ستمر بأدوار كالتي مر فيها بنو إسرائيل، وتقف من دينها وعقيدتها مواقف شبيهة بمواقف بني إسرائيل فعرض عليها مزالق الطريق، مصورة في تاريخ بني إسرائيل، لتكون لها عظة وعبرة ولترى صورتها في هذه المرأة المرفوعة لها بيد الله - سبحانه - قبل الوقوع في تلك المزالق أو اللجاج فيها على مدار الطريق"¹³.

ولا نمضي أكثر من هذا في بيان منطق القرآن في عرض موضوعات العقيدة الكبرى في ضوء المكي والمدني وفي ضوء اختلاف المخاطب حتى ندلل على ذلك بنماذج تطبيقية.

4- بلاغة الحجاج في نماذج مقارنة بين المكي والمدني:

يحسن في هذا المقام من البحث وقد مهدنا السبيل لبيان الاختلاف بين المكي والمدني على مستوى المتلقي من جهة وعلى مستوى المضامين الكبرى التي طرحها الخطاب القرآني يحسن بنا أن نجلي شيئا من البنية الحجاجية التي وظفها القرآن سواء على مستوى البنية المنطقية الجدلية أو على مستوى البنية اللغوية الخطابية مقتصرين في ذلك على نماذج متنوعة دون الاستقصاء في ضوء ما يسمح به مقام البحث، على أننا نقتصر كذلك على انتقاء نماذج من الآيات الخاصة بإثبات وحدانية الله دون استقصاء جميع موضوعات العقيدة الرئيسية فضلا موضوعات القرآن الأخرى.

5- موضوع الوحدانية في السور المكية المكي:

سلك الخطاب القرآني في تقرير حقيقة وحدانية الله مسالك حجاجية كثيرة فمنها الحجج العقلية البرهانية ومنها الحجج الوجدانية، ومنها الحجج اللغوية الخطابية، وتتوزع هذه الحجج بين التصريح والتلميح ويتخذ القرآن الوجود كله مجالا لموجبات الإيمان ودلائل التوحيد تجابه المخاطبين وتواجههم وتحيط بهم وتطالعهم في الآفاق وفي أنفسهم.

ولأن الخطاب القرآن محشود بكل أصناف الحجج في كل اتجاه فمن حجج الكون الفسيح إلى حجج النفس وأغوارها إلى حجج سجل التاريخ إلى حجة الفطرة إلى حجة العقل واستنتاجاته إلى حجة الوجدان .. إلى حجة الأسلوب القرآني المعجز في ذاته فلا شك أنه يصعب جدا على أي باحث أن يحيط بحجج القرآن أو يضع تصنيفا شاملا لها .

ورغم ذلك سنحاول - بنوع من المقاربة- أن نتناول البنية الحجاجية في موضوع الوجدانية بأن نقارب هذا التصنيف وفق أربع طرق منها طريقان موضوعيان وهما إثبات الوجدانية ونفي نقيضها وهو ما يسمى دليل الآفاق والأنفس ويجمعها طريق حسي، وثالثها طريق منهجي وهو برهان العقل المجرد، ورابعها طريق خطابي أي لغوي، وإذا كان الطريقان الأوليان أقرب ما يكون إلى الحجج المؤسسة على بنية الواقع بلغة برلمان، فإن الطريق الثالث أقرب إلى الحجج شبه المنطقية، كما أن الطريق الرابع هو أقرب إلى الحجج المؤسسة لبنية الواقع بلغة برلمان نفسه. على أننا نقصر على نماذج فقط بما يسمح به مقام هذا البحث.

5.1. الحجة الحسية:

وهي نوع من الأدلة يذكرها القرآن بكثرة وهي تنفرد إلى عدة أنواع كلها تصب في إثبات الوجدانية، غير أن القرآن من أجل إثباته للوجدانية المقتضية للعبادة يسلك سبيلا يقر به كل مخلوق سليم الفطرة وهي الربوبية ومظاهرها المبتوثة في الكون وفي نفس الإنسان، وقد اتخذ القرآن الإقرار بتوحيد الربوبية دليلا على إثبات الوجدانية والعبادة فيكون الحجاج بمظاهر الربوبية من باب المنطلقات الحجاجية و"المواضع" للوصول إلى إقناع المتلقي بالوجدانية، ولذلك لا يسعى القرآن إلى إثبات الربوبية ومظاهرها إذ هي مما يقر به المخاطبون إلا من شذ من الدهريين، بل يذكر بها وبمظاهرها المبتوثة في صفحات الكون وفي أطواء النفوس ومكنون الضمائر إذ إن "مقصود القرآن بذكر من وراءها هو بيان الأثر المترتب على هذه الحقيقة في القرآن وكيف ربط توحيد الربوبية بتوحيد العبادة باعتبار أن الأول من أعظم الأدلة على الثاني"¹⁴، ولذلك لا يفتأ القرآن يذكر بها لأن مشاهد الكون وظواهره حاضرة أبدا لا تغيب عن إنسان. ولكنها "تفقد جدتها في نفوس الناس بطول الألفة ويضعف إيقاعها على قلوب البشر بطول التكرار"¹⁵.

5.1.1. إثبات الربوبية بتقرير مظاهرها:

وهذا النوع من الحجاج كثر في القرآن المكي كثرة بالغة، ويتخذ الخطاب القرآني حجة لإثبات الوجدانية ووجوب عبادته وحده، ويجند القرآن الكون كله في مظهره كما يجعل طريقة خلق الإنسان ونشأته وما يدور حوله من مظاهر التسخير لأجله، جاعلا الأولى شهادة آفاق والثانية شهادة أنفس وذلك مصداق قوله عز من قائل: "سُنُّرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ" (53) " ليكون ذلك شاهدا على إثبات وحدانيته سبحانه، ولعل هذا ما جعل ما ابن رشد يصنف كل

أدلة القرآن في نوعين اثنين أحدهما "دليل الاختراع" والثاني "دليل العناية" حيث يقول: "الطريقة التي دعا الكتاب العزيز عليها ونبه الكل من بابها إذا استقريء الكتاب العزيز وجدت تنحصر في جنسين أحدهما طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجلها (العناية)، ولنسم هذا دليل العناية، والطريقة الثانية ما يظهر من اختراع جميع جواهر الأشياء الموجودة مثل إدراك الحياة الحسية في الجماد والأشياء الحسية والعقل ولنسم هذا دليل الاختراع"¹⁶. ولا يختلف مصطلح شهادة الآفاق والأنفس عن مصطلحي العناية والاختراع إلا في كون الأول عم من الثاني إذ دليل الاختراع يشمل الآفاق والأنفس كما أن دليل العناية يشملهما كذلك معاً.

والقرآن يعرض مظاهر الربوبية بوصفها منطلقات حاجية لأجل الاقناع بالوحدانية إذ هي وقائع وحقائق لا يماري المخاطب في ردها أو التشكيك فيها.

ورغم صعوبة حصر كل مظاهر الربوبية التي يذكرها القرآن لأنها لا تقتصر على أسلوب واحد في العرض والبيان، وإنما تأتي حدائق ذات بهجة من الأساليب التي تتحد في الهدف وتختلف في الوسائل المؤدية إليه إلا أنه بشيء من الإجمال يمكن حصرها في طريقين أحدهما هو تعداد مظاهر هذه الربوبية للاستدلال بعظمة المخلوق على عظمة الخالق، والثاني يكون بذكر انفراد الله بالكمال المطلق وهو الاتصاف بالأسماء الحسنى والصفات العلى؛ وهو المسمى توحيد الأسماء والصفات، كما أن طريقة عرض هذه المظاهر يتراوح بين الإجمال والتفصيل ويكون الإجمال بذكر لفظ الرب الشامل لكل معاني الخلق والرزق والتدبير والملك والإنعام... أما التفصيل فيكون بذكر هذه الألفاظ ومعانيها مفصلة¹⁷.

كل ذلك ممزوج بين شهادة الآفاق وشهادة الأنفس لتكون هذه المعجزات الكامنة فيهم والمبثوثة في الكون من حولهم إحدى دلائل الإيمان، وبراهين العقيدة، فيبثها في كيانه، أو يوقظها في فطرتهم عن طريق تقريرها بالإخبار أو الاستفهام المفضي إلى التقرير.

تقرير الوحدانية بشهادة الآفاق والأنفس:

1.1.1.5 دليل الربوبية المجل:

مثال 1: رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (مريم 65)

حجة 1 حجة 2 نتيجة

مثال 2: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (الأنبياء 92)

حجة 1 حجة 2 نتيجة

2.1.1.5 دليل الربوبية المفصل:

أ- حجج الخلق والرزق والتصوير

مثال 1: ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ (الأنعام 102)

حجة نتيجة ضمنية حجة نتيجة صريحة

مثال 2: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَصَوَّرَكُم فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ

حجة 1 حجة 2 حجة 3 حجة 4

الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ (غافر 64)

حجة 5

ب- حجج القدرة والإحياء والإماتة

مثال 1: أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَالَ اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(الشورى 9)

فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ

حجة 6 حجة 7 نتيجة ضمنية نتيجة صريحة

رَبِّ الْعَالَمِينَ (غافر 65)

مثال 3: رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ (7) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ

حجة 1 حجة 2 نتيجة حجة 3

رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (الدخان 7-8)

حجة 4

مثال 6: - الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) (الفاتحة).

نتيجة حجة

مثال 7: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (العلق 1-2)

أطروحة حجة حجة داعمة

ج- حجج التسوية والتقدير والهداية:

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (الأعلى 3)

نتيجة حجة 1 حجة 2

مثال 9: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ

حجة 3

حجة 2

حجة

مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ

حجة 4

ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (يونس 3)

حجة 5 نتيجة

د - حجج البدء والإعادة:

مثال 10: اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (الروم 11)

مثال 11: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ

شَيْءٍ فَقَدْ رَهَقَهُ تَقْدِيرًا (الفرقان 2)

2.1.1.5. تقرير الوجدانية بنفي صحة نقيضها

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (فاطر 13)

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ

ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ (الأعراف 195)

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ

مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (الفرقان 3)

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا

مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (سبا 22)

في هذه الآيات تتجلى الحجج القرآنية الدالة على مظاهر الربوبية في أسلوب الإخبار أو في أسلوب الإنشاء، وسواء من طريق الإثبات إثبات مظاهر الخلق والرزق والتدبير والقدرة المطلقة والإنعام والإماتة والإحياء.... وهي مظاهر قدرة مطلقة يقر بها المخاطبون وتقتضى وحدانية الله في عبادته من جهة ، أو في مظاهر النفي نفي قدرة المعبودات الأخرى على أي من مظاهر الربوبية فهي لا تخلق ولا ترزق ولا تملك شيئا؛ بل لا تضر ولا تنفع، بل لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش وهي كلها دلائل عجز وافتقار يجعلها لا تستحق شيئا من الألوهية من جهة أخرى، والحجاج القرآني في حالي الإثبات والنفي يتوخى إقناع المخاطب . بمختلف أصناف الحجج . باستحقاق الله للألوهية ونفيها عن سواه استحقاقا يراه المخاطبون حولهم مما يحيط بهم من شهادة الآفاق وشهادة الأنفس، تلك الشهادة التي لا يملكون لها ردا إلا اللجاجة والعناد واتباع تقليد الآباء دون مسكة من عقل راجح أو حس سليم.

2.1.5. الحجة العقلية:

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (المؤمنون 91)

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ (الأنبياء 22)

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (الإسراء 42)

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ (الطور 37)

وينتظم هذا النوع من الحجج تحت ما يسمى بالحجج المنطقية لأنها لها محتوى الحجة المنطقية في أنها تحتوي مقدمات تنبني عليها نتائج كما أنها ملزمة من جهة ثانية، ولكن القرآن يعرضها عرضاً خطابياً فطرياً يفهمها ويستوعبها جميع الناس لأن الحجة الفطرية ينبغي أن تكون بسيطة، تذهب إلى المطلوب من أقصر السبل، وأيسر الأحكام، وأوضح التصورات¹⁸، دون التطويل والتعقيد بالمقدمات والنتائج وما ينبني عليه من الموضوعات والمحمولات والحدود... وذلك لأن الحجة المستقيمة تذهب مباشرة من الملزم إلى اللازم وهذا هو الطريق الفطري الذي يسلكه العقل الفطري لأنه أبسط طرق الاستدلال وأكثرها شيوعاً بين عامة الناس¹⁹، دون التعقيد الاستدلالي الذي يترفع عنها الكلام الحاجي البليغ فكيف بالحجاج القرآني الذي بلغ من البلاغة منتهاها.

لذلك أشرنا إليها بأنها أقرب إلى ما سماه برلمان بالحجج شبه المنطقية²⁰، وتأتي برهانيتها بأنها من جهة "تستمد قوتها الإقناعية من مشابقتها للطرائق الشكلية والرياضية والمنطقية في البرهنة"²¹، ومن جهة أخرى تأخذ صورة القياس ولكن على طريقة القرآن في الحذف والاقتضاء والتقدير دون الإكثار من ذكر المقدمات والنتائج التي ينبو عنها السمو البياني التي انفردت بلاغة القرآن .

ففي الآية الأولى: قياس برهاني صورته

لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ← ولكنهما لم تفسدا²² ← إذن فليس فيهما آلهة إلا الله وهو

قياس من الضرب الأول من الشكل الثاني من القياس الاستثنائي المتصل²³، نفس المرجع، (2000)

وفي الآية الثانية: لو كان مع الله آلهة كثيرون لاختلَفوا في المِراد ولفسد نظام الكون لكن نظام

الكون لم يفسد إذن ليس مع الله آلهة

وفي الآية الثالثة: لو كان مع الله آلهة إذن لابتغوا إلى الله سبيلاً لينازعوه العرش أو ليتقربوا إليه

زلفى ولكنه لم يبتغي أحد سبيلاً إلى العرش إذن ليس معه آلهة كما تقولون²⁴.

3.1.6. الحجة الوجدانية:

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا (الأعراف 172) حجة 1
 . فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (العنكبوت 65)
 حجة
 . وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ (الإسراء 67)
 حجة
 . وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ (يونس 12) حجة

في هذه الآيات الكريم وغيرها . مما لم نذكر. تتجلى حجة من نوع آخر يمكن أن تسمى "حجة الفطرة" وهي تكمن في أن القرآن يستدل بحقيقة مركوزة في وجدان الإنسان، وهي أن القرآن الكريم لا يعد معرفة الله في نفس الإنسان أمرا فطريا فحسب بل يعتبر الإيمان بوجدانيته أمرا فطريا أيضا، على أن نسيان هذه الفطرة يرجع إلى ما يتعرض له الإنسان عادة من حجب كثيفة من العادات والأفكار المنحرفة والتعاليم المغلوطة وتضليل الشيطان والهوى وجواذب الدنيا التي تلف هذه الفطرة وتحجبها لكنها أحيانا نتيجة لبعض الظروف التي يمر بها الإنسان فإنها تزول عنها تلك الحجب وتلك الستائر الوهمية، والقرآن الكريم يشير إلى تلك اللحظات الحساسة وذلك عندما تزول الحجب بسبب عواصف الأحداث فيبقى الإنسان خاليا مع فطرته وصريح وجدانه، فيدعو ربه وحده معترفا بوجدانيته تاركا عنه ما سواه مما اتخذه من الآلهة الزائفة، وهذه الآيات يحتاج بها القرآن المخاطبين في مكة . ومن وراءهم كل إنسان في هذا الوجود . من خلال الاستدلال بهذا الاعتراف الصريح للإنسان في هذه الساعات العسيرة على ووجدانيته التي يعترف بها الإنسان حينما تزول عنه الحجب الصارفة عن الحق التي جعلت عبادة الواحد سبحانه وتعالى وتوحيده مركز ومستودع في أعماق روحه، والقرآن لا يفعل أكثر من أن يذكر بهذه اللحظات الحساسة في حياة الإنسان ليجعل ذلك دليلا . لاشك فيه . على إثبات ووجدانيته سبحانه وتعالى.

ومن خلال هذه الآيات تتعدد مجالات الفطرة في المكان والزمان فمن عالم الذر (عالم الإشهاد) إلى لحظات الضر والمرض والخوف، ومن اضطراب ركوب الفلك في البحر وأهواله إلى الجأر والافتقار بعد زوال النعمة ومجيء الكرب والضرر.. ففي الآية الأولى يذكر القرآن المخاطبين من بني آدم هذا الميثاق الذي واثقوا به ربهم وهم في عالم الذر لم يولدوا بعد معترفين بألوهيته لهم . وحده دون سواه . والاعتراف المدلول عليه بشهادتهم هو إقرار منهم واعتراف لا مجال للمماراة فيه، على أن الآية

الكريمة تتضمن حجتين إحداهما داعمة للأخرى فالأولى دليل على الربوبية وهي الخلق في قوله "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم"، والثانية في قوله "ألست بربكم قالوا بلى" وهي دليل على الألوهية بهذا الإقرار وهذا أشار إليه ابن تيمية بقوله: "فالأخذ يتضمن خلقهم، والإشهاد يتضمن هداه لهم إلى هذا الإقرار"²⁵.

أما الآيات الأخرى فهي تتضمن حججا فطرية مركزة في وجدان المخاطبين وفي قلوبهم، وإنما يتملصون منها تبجحا وتكبيرا وعنادا وتقليدا وإباءً يقول القاسمي: "فهذه الآيات وما شابهها تتضمن تقريرا للناس بأمر تعرفه فطرتهم، وهو ما غرسه الله فيها من معرفته"²⁶.

وهذه الحجج إحتجاج عليهم بما لا سبيل إلى دفعه منهم إذ هو مما يقرون به كل ما حزبهم ضيق أو أصابهم مكروه في ظلمات البر والبحر لأنه "انْتَقَالَ إِلَى الزَّامِهِمْ بِمَا يَفْتَضِيهِ دُعَاؤُهُمْ حِينَ لَا يُشْرِكُونَ فِيهِ إِلَهًا آخَرَ مَعَ اللَّهِ بَعْدَ الزَّامِهِمْ بِمُوجِبَاتِ اعْتِرَافَاتِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَدْعُونَ أَصْنَامَهُمْ فِي شُؤْنِ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَيَسْتَنْصِرُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ إِذَا أَصَابَهُمْ هَوْلٌ تَوَجَّهُوا بِتَضَرُّعِهِمْ إِلَى اللَّهِ"²⁷.

6- في السور المدنية:

تعد الهجرة النبوية معيارا فاصلا بين وضعين فاصلين في تنزل القرآن، وقد كان لهذا الانتقال أبرز الأثر على مستوى أسلوب القرآن أو مستوى مضمونه وما ينبني عليهما من تغير بنيته الحجاجية وهذا الانتقال "لا تتعلق حتما بوصف ظرفي لحالة طارئة في الزمان والمكان، وإنما ترمز هذه النسبة إلى الدلالة على التعيين النوعي للإنسان-الفرد، والإنسان -المجتمع..الذي يلخص مجمل الخصائص النوعية للإنسان في مجتمع الشرك بمكة قبل الهجرة، والإنسان في مجتمع الإيمان بالمدينة المنورة بعد الهجرة"²⁸.

كما أن تنزل القرآن بمكة أولا ثم بالمدينة بعد ذلك، قد جاء يلبي الحاجة الإنسانية في التدرج من طور إلى آخر، وفق المقاييس التي يرسمها منهج الحجاج القرآني المعتمد على التربية والتكوين والتدرج من الأصول الكبرى إلى الفروع التي تقتضيها ومن العقيدة إلى الشريعة ومن المبادئ النظرية إلى الأحكام والنظم والتشريعات العملية وهذا الأمر يعكس بلاغة القرآن في رعاية مقتضى حال المخاطبين، فقد انتقل الخطاب القرآني في العهد المكي من إقناع المخاطب المنكر لوحداية الله وإنكار البعث والنبوة والوحي وهي كبرى اليقينيّات العقديّة في القرآن إلى العهد المدني الذي كان المخاطب فيه مؤمنا غالبا بهذه الأصول الكبرى كما عند المسلمين الذين تربوا على أصول العقيدة في العهد المكي، بالإضافة إلى مخاطبين يشتركوا مع المؤمنين في اثنين من الأصول الثلاثة الكبرى التي طرحها القرآن وينكرون الثالث وهو النبوة الخاصة أي نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

على أننا في هذا البحث إنما نريد بيان أثر هذا الانتقال المكاني_ الزماني من جهة والانتقال من مخاطبين يغلب عليهم الإنكار إلى مخاطبين يغلب عليهم الإيمان على البنية الحجاجية للقرآن الكريم ومظاهر هذه البنية نوعيا وكميا مع الأخذ في الحسبان أن القرآن الكريم مطلق وليس نسبيا؛ إذ هو يستجيب للوعي البشري المقيد بالزمان والمكان، يتعالى عليه .

1.6. موضوع الوحدانية في القرآن المدني :

قلّ في القرآن المدني الحديث عن الوحدانية (الإلهية) قلة ملحوظة رغم أنها الموضوع الأساسي في القرآن الكريم كله، وذلك لأسباب أشرنا إلى بعضها وسنشير إلى أسباب أخرى، فمن أهمها أن القرآن الكريم لما كان مبنيا على بلوغ الغاية القصوى من الافتتان في البلاغة فقد راعى ظروف المتلقي حاجه فقد أكثر من الحديث عن هذه القضية المحورية في القرآن المكي لما كان المتلقي منكرا لها أما وقد ثبتها ورسخها ترسيخا لاشك فيه، اكتفى بالإشارات القليلة إلى هذا الموضوع في القرآن المدني أساسا الموجه إلى المؤمنين الذين رسخت هذه القضية في قلوبهم ونفوسهم فلم يكن هناك داعيا لتكرار الحديث عنها كما أن المتلقي في هذا السياق المدني يحتاج إلى ما تقتضيه هذه العقيدة من تشريعات وأحكام وتوجيهات عملية لاستكمال بناء هذه العقيدة إذ إن "القرآن المدني نزل ليعالج- في الغالب- تطبيق تلك العقيدة وذاك التصور عن التوحيد في الحياة الواقعية وحمل النفوس على الاضطلاع بما تقتضيه تلك العقيدة في معترك الحياة، والنهوض بتكاليفها في عالم الظاهر بعد تمكنها في عالم الضمير²⁹.

وإذا أردنا التذليل على هذه قلة الحديث عن موضوع الوحدانية في القرآن المكي فيكفي دلالة على ذلك أن آيات الوحدانية لم تتعد (110) آيات في القرآن المدني كله بإحصاء بازركان³⁰، في حين بلغت آيات الوحدانية في القرآن المكي (814) بإحصاء بازركان نفسه³¹، وهذا يدل على الانخفاض انخفاضاً واضحاً بنسبة بلغت السبع فيه أكبر الدلالة على الحجاج حول الوحدانية إلى الحجاج تشريع الأحكام وسواء كان السبب الوجيه في هذا التغير هو تغير المخاطب من الإنكار والكفر إلى الإقرار والإيمان أو كان هو الاكتفاء عنها بما استوفاه عنها من بيان كامل في القرآن المكي فسواء كان هذا أو ذاك فهما سببان متلازمان وأحدهما بسبب من الآخر نقول ذلك دون ننسى أن شطرا كبيرا من آيات الوحدانية في القرآن المدني قد جاءت حجاجا على أهل الكتاب (اليهود والنصارى) في كفرهم أو تحريفهم لكتبهم المتمثل في تأليه المسيح عليه السلام وعزير.

هذا من الناحية الكمية التي رأينا الفرق فيها واضحا بين المكي والمدني في هذا الموضوع، أما إذا قارنا ذلك من الناحية النوعية المتمثلة في بنية الحجج وطبيعتها فإن الأمر سيختلف هو الآخر؛ فبعدما كان موضوع التوحيد موضوعا مستدلا له صار هذا الموضوع في القرآن المدني مستدلا به بعدما كان هذا الموضوع أطروحة طرحها القرآن ليثبتها صارت هي نفسها حجة من أجل إقناع

المخاطبين بقضايا الأحكام والتشريع، وبلغه علماء الحجاج بعدما كانت هذه القضية مقدمة (معطاة) صارت هي "قانون عبور" (Passage) إلى النتيجة التي يريد الخطاب القرآني أن يقنع المتلقي بها في قضايا تشريع الأحكام وتوجيه المؤمنين.

وهذا التحول الحجاجي هو بحد ذاته غاية في الأهمية بالنسبة لبحثنا خاصة، وهو أهم أهداف البحث، كما أنه غاية في الأهمية لمعرفة فلسفة الخطاب القرآن عامة وحكمة تنزيله منجما. على أن تقرير هذه الحقيقة . على بالغ أهميتها في اعتقادنا . منقوصا من الوجهة العلمية إذا لم نحن لم ندلل على ما قلناه بأمثلة واضحة الدلالة على ذلك.

وإذا أردنا نقرر هذه الحقيقة بتتبع طرق الحجاج في الوجدانية في المحور السابق والتي جعلناها أربعة طرق هي الطريق العقلي والطريق الوجداني والطريق الحسي والطريق الأسلوبي فإن توفر الطريق الأول يكاد يتوارى بالحجاب في السور المدنية، ونقصد بذلك الحجة المعتمدة على البرهان والقياس الاستنباطي كما في آية الأنبياء وآية المؤمنون وآية الإسراء السابقة الذكر، وإن ظل القرآن المدني يعتمد العقل دائما- إلى جنب الفطرة والوجدان - في إقناع متلقيه، لكننا نقصد نوعا معينا من الحجج تلك التي يكون الاستدلال فيها ملزما للمخاطب من الناحية العقلية. فقد تغيرت الحجة التي كانت غالبا مبنية على الحجج شبه المنطقية بأنواعها المختلفة، والمؤسسة على بنية الواقع إلى نوع من الحجج على الحجاج بالقيم في الغالب، وذلك لأن المسلمين قد رسخ في نفوسهم الإيمان بالله ووجدانيته فصار ذلك أبرز قيمة غرسها القرآن في نفوس متلقيه تلك القيمة التي صاروا يزنون بها كل شيء من أوامر التشريعات والتنظيمات والتوجيهات. وهو التحول الكبير في المسار الحجاجي من الانتقال بالحجاج من عناصر تحيل من الواقع إلى الحجاج بعناصر مما يفضلها المتلقي وهي القيم وهرميتها والمواضع³²، وهذا ما وجدناه في القرآن المكي الذي كان يعتمد . غالبا . على منطلقات حجاجية قوامها الحقائق والوقائع والافتراضات إلى صنف حجاجي في القرآن المدني قوامه . في الغالب . على القيم المكتسبة في العهد المكي وأبرزها قيمة الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر .

أما الطريق الوجداني فقد قلّ هو الآخر لأن الآيات المدنية في موضوع الوجدانية صارت تخاطب سلوك الإنسان المؤمن بعد كانت تخاطب ضميره وقلبه فضلا عن عقله في السور المكية.

أما الطريق الحسي المعتمد على بيان وحدانية الله في الآفاق والأنفس سواء بدليل الاختراع أو بدليل العناية كما يقول ابن رشد³³، فقد قلّ هو الآخر لكنه . على قلته . بقي موجودا مقارنة بالأساليب الحجاجية الأخرى على أنه رغم وجوده القليلة فإنه يأتي في إطار ما أسميناه أنفا دليلا للإقناع بتشريع الأحكام وتنفيذها بعد ذكر كثر تناول هذا الموضوع في القرآن المكي قال عنها في القرآن المدني .. كما كان هو موضوع القرآن المدني كلما عرضت مناسبة لتشريع أو توجيه³⁴، وقال عنها في موضع

آخر: " ويعالجها القرآن المكي كله، كما يعالجها القرآن المدني أيضا، كلما جاء ذكر النظام فيه وذكر التشريع"³⁵.

أما الحجة اللغوية (الأسلوبية) فقد تحولت من الإيحاء إلى التصريح في الغالب، وتغيرت من نوع إلى نوع ففي السور المكية تكثر فيها أساليب القسم والتوكيد والاستفهام التقريعي والتوبيخي والنفي والزجر... أما في السور المدنية فتبدو أقرب إلى السرد التقريعي الذي يعتمد في الغالب الأسلوب الصريح المباشر في مقارعة أهل الكتاب وكشف تحريفاتهم ومواقفهم، من جهة وتقرير تشريع الأحكام الذي يناسبه هذا الأسلوب من جهة أخرى، وهو الأمر الذي أشار إليه المرحوم عبد الله صولة رغم تركيزه على أسلوب التوكيد أساسا لكننا نراه يصلح لكل الأساليب التي ذكرنا آنفا وغيرها حيث يقول: "إن القرآن المكي وهو في مخاطبة العرب المشركين أساسا قد اعتمد الإيحاء والاحتفاظ بالنتيجة التي منها المفهوم اللاقولي أكثر مما فعل القرآن المدني"³⁶. وهو أمر تنبه له الجاحظ قديما وأشار إليه إشارة خاطفة، ولكنها لا تخلو من براعة وإبداع حيث يقول: "ورأينا الله إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي وإذا خاطب بني إسرائيل جعله مبسوطا وزاد في الكلام"³⁷.

على أننا نقتصر . في هذا المقال . على الأنواع الثلاثة السابقة من الحجج دون النوع الرابع المتعلق بالحجة اللغوية (الأسلوبية)؛ لأن الأمر في بيان هذه الحجة يحتاج إلى تفصيل يتفرع إلى الحجاج بالكلمة المعجمية والحجاج بالتركيب والحجاج بالأساليب، وكذلك الحجاج بالصورة البيانية والمحسنات البديعية؛ وهو أمر لا يتسع له هذا البحث المبني أساسا على الإشارة والاختصار دون الشرح والتفصيل.

- | | |
|---|-----------|
| <p>- وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران 139)</p> <p>أطروحة نتيجة حجة</p> <p>- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (البقرة 278)</p> <p>أطروحة+ نتيجة حجة</p> <p>- يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (النور 17)</p> <p>أطروحة+نتيجة حجة</p> | <p>1-</p> |
| <p>- وَلَا يَجِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكُنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (البقرة 228)</p> <p>نتيجة حجة</p> <p>- ذَلِكَ يُعَظُّ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (البقرة 232)</p> <p>نتيجة حجة</p> | <p>2-</p> |
| <p>- فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (النساء 59)</p> <p>أطروحة نتيجة حجة</p> | |

- 3- { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (التوبة 129)
 أطروحة نتيجة حجة 1 حجة 2 حجة 3
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (12) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 أطروحة+حجة أطروحة 2 حجة
 - وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (التغابن 12)
 حجة

- 4- { أ- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (المائدة 35) حجة + نتيجة
 أطروحة + أطروحة + نتيجة
 ب- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (الأحزاب 70)
 حجة + نتيجة أطروحة
 ج- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (التوبة 119)
 حجة + نتيجة أطروحة

في هذه النماذج من آيات القرآن المدني يتجلى نموذج آخر من الحجاج يختلف عما عهدناه في الأمثلة السابقة المدروسة في السور المكية، ذلك أنه إذا كانت الحجج الموظفة في القرآن المكي هي تتراوح بين حجج عقلية جدلية أو فطرية وجداني حسية تجريبية فإن الحجاج في هذه الأمثلة من السور المدنية هو حجاج بالقيم سواء كانت القيم رسخها الخطاب القرآني بالطرق السابقة المذكورة آنفا (حالة المؤمنين) أو كانت مما يقر به المخاطب كونه مما يؤمن به من كتبه السماوية (في حالة أهل الكتاب). ويتجلى خواتيم الآيات السابقة الأمثلة المذيلة بالجملة الشرطية "إن كنتم مؤمنين" وهو شرط قوته الإنجازية هو الحث على تجاوز المصيبة وعدم الركون إلى الهوان والحزن، والحجة في ذلك هي القيمة الإيمانية عند المؤمن يقول ابن عاشور: "والتعليل بالشرط في قوله: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قُصِدَ بِهِ تَهْيِيجُ غَيْرَتِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ إِذْ قَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا لَاحَ عَلَيْهِمُ الْوَهْنُ وَالْحَزَنُ مِنَ الْعَلَبَةِ، كَانُوا بِمَنْزِلَةِ مَنْ ضَعَفَ يَقِينُهُ فَقِيلَ لَهُمْ: إِنْ عَلِمْتُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ الْإِيمَانَ"³⁸. ويقول في موضع آخر وفي آية شبيهة بهذه الأمثلة: "وَهُدًى تَذَكِيرٌ وَإِحْمَاءٌ لِإِيمَانِهِمْ وَإِلَّا فَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ حَقًّا"³⁹، ويقول الزمخشري مفسرا الآية الثاني من الأمثلة (1): "والمقصود بهذا الشرط: التنبيه على المعنى الذي يقتضيه الامتثال وإلهاب الحمية للطاعة"⁴⁰، ويقول ابن عاشور عن قيمة الشرط الحجاجية في المثال الثالث من الأمثلة (1): "إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ تَهْيِيجُ وَإِلْهَابٌ لَهُمْ يَبْعَثُ حِرْصَهُمْ عَلَى أَنْ لَا يَعُودُوا لِمِثْلِهِ لِأَنَّهُمْ

حَرِيصُونَ عَلَىٰ إثْبَاتِ إِيْمَانِهِمْ⁴¹. ويجلي أبو السعود القيمة الحجاجية للحجاج بالمعايير الإيمانية التي أصبحت من أبرز الثوابت عند المؤمنين حيث يقول: "فإنَّ الإيمانَ وانع عنه لا محالة وفيه تهيج وتقريع"⁴².

ومن هذه التفاسير يتبين وفرة الحجاج بالقيم وأعلها قيمة الإيمان التي ظلت هي المعيار الذي يتخذ الحجاج القرآني في إقناع المخاطب المسلم للقيام بالتشريعات والأحكام والتوجيهات، و الأمر نفسه يمكن أن يقال عن حجاج محاجة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ولاسيما اليهود إذ يتخذ القرآن من قيمة إيمانهم بالتوراة والإنجيل دليلا على اللرد عليهم في انحرافاتهم العقدية والتشريعية كما في البقرة الآيات 91، و93 و228، والمائدة 23 و112) وهي آيات تتذيل بالجملة الشرطية "إن كنتم مؤمنين" فيتكون فعلا إنجازيا غايته الحث والتهيج، و" فيكون المقصد هز النفوس وإقامتها"⁴³، بما تقر به من قيمة الإيمان بالتوراة والإنجيل.

والأمر ذاته يقال عن الأمثلة (2) ببقاء التذليل بأسلوب الشرط مع تغيير الصيغة وإضافة الإيمان بالآخرة الذي هو قيمة أخرى إلى جانب قيمة الإيمان بالله ، وقريب ما ذكرنا ما نراه في الأمثلة (3) من ذكر كلمة التوحيد بوصفها حجة لإقناع الرسول صلى الله عليه وسلم بالثبات على الحق وإن تولى عنه الجميع، أما في الأمثلة (4) فإن الأمر بتقوى الله وما عطف عليه من أحكام توجيهية هي أيضا حجاج بالقيم لأن تقوى الله مما يسعى إليه المؤمن ويتوخاه، ذلك أن فعل التقوى بصيغة " اتقوا الله" لم يذكر إلا في القرآن السور المدنية، وهذا مما يزكي ما ذهبنا إليه، وهذا الأمر بالتقوى وما يعطف عليه من الأمر بابتغاء الوسيلة والجاهد في سبيله في (4-أ) والأمر بسداد القول في (4-ب) والأمر بالصدق (4-ج) هو كونهما حجتان بينهما علاقة تلازم واقتضاء لأن شأن المؤمن تقوى الله من جهة، والصدق وابتغاء وجه الله وتحري القول السديد وهذه كلها قيم وظفها الحجاج القرآني لإقناع المتلقي بها كونها من منطلقا مشتركا بين المتكلم . سبحانه وتعالى . والمخاطب.

خاتمة ونتائج:

مما ينبغي الوصول إليه من هذه المجاجة الأخيرة من هذا البحث أن الحجاج القرآني مبني في الأساس على رعاية مقتضى حال المخاطبين، وأن هذه البلاغة السامية بهرت العقول وأدهشت القلوب وأعجزت العرب الذين كانوا فرسان الكلمة المبرزين بلا منازع، فجاءت البلاغة هذه الأسرة التي تحداهم القرآن بها فأعجزهم عجزا لا مثيل له، بما احتوته من حجة بالغة، حجة تخاطب وتحاج كل إنسان حسب ميوله الاعتقادية والنفسية الاجتماعية والثقافية، وتتجلى مطابقة البلاغة القرآنية لمقتضى حال المخاطب كأحسن ما يكون في المكي والمدني؛ ذلك الوضعان المختلفان والمقامان المتمايزان للتزليل القرآني، وقد كان لهذا التحول . المكاني . الزماني . الموضوعي . أثر كبير على تحول بنية الحجاج

القرآني سواء على المستوى النوعي للحجج أو على مستوى الكمي لها هذا التحول الذي تنبهه الدارسون إلى بعض فروقاته بين المكي والمدني وأسباب هذه الفروقات دون أن يتنبهوا . في الغالب . إلى القيمة الحجاجية الإقناعية لهذا التحول، وهذه السيورة الحجاجية للقرآن الكريم في مسار نزوله.

وأبرز النتائج المبدئية التي توصلت إليها هذه الدراسة ما يلي:

1 . القرآن الكريم يراعي مقام المخاطبين فيخاطب كل متلق بمقتضى حاله الاعتقادي والسلوكي والنفسي .

. من خلال تحليل البنية الحجاجية لآيات الوجدانية في القرآن في ضوء مقارنتها بين المكي والمدني تم التوصل إلى النتائج التالية:

2 توفر الخطاب القرآني في العهد المكي في حجاجه على مختلف الطرائق الحجاجية كالحجج العقلية المنطقية والحجج التجريبية والحجج الفطرية الوجدانية والحجج الأسلوبية الخطابية

3 . اعتمد الخطاب القرآني في العهد المدني على الحجاج بالقيم والحجاج بالسلطة سواء كانت هذه السلطة ممثلة في سلطة الكتب السماوية كما عند أهل الكتاب أو كانت سلطة الله منزل القرآن بالنسبة للمسلمين.

4 . تحوّل الحجاج القرآني من مخاطبة الأساس الدفين في العقل البشري من خلال مخاطبة الوجدان وتعرية الرواسب التي ترنو علي فطرة الإيمان المجبول عليها إلى مخاطبة السلوك الخارجي العملي.

5 . انتقل الحجاج القرآني حول إثبات وحدانية الله في القرآن المكي من الاستلال عليها عقليا وحسيا ووجدانيا وأسلوبيا وذلك من خلال الاستدلال بمظاهر الربوبية التي يقر بها المخاطبون ولا ينكرونها لأنهم يرونها ماثلة أمامهم بشهادة الأفاق والأنفس إلى الحجاج بها في القرآن المدني بعدما صار الإيمان بها أبرز قيمة رسخها القرآن في عقل المسلم وضميره أي انتقل القرآن من الاستدلال على إثبات الوجدانية بغيرها من الحجج إلى الاستدلال بها على الإقناع بالقيام بالأحكام التشريعية في التنزيل المدني.

6 . تحول موضوع الوجدانية من دعوى (أطروحة) يحتج لها من غيرها في المكي إلى حجة يحتج بها على إثبات غيرها من قضايا التشريع والجهاد والعبادات في المدني (حجة قيمة...حجة سلطة).

الهوامش:

1- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن السيوطي تح: محمد أبو الفضل إبراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط1، 1974 م ص36/1.

2- البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دط، د ت ، ص531/11، 532

3- الطباطبائي ، تفسير الميزان ، مكتبة الأعظمي ، بيروت، لبنان، ط ، ص211/15

- 4 - ينظر: نفس المرجع، ص212/15
- 5 - أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم، ص216/6
- 6 - الزمخشري، الكشاف، 279/3
- 7 - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص20/19
- 8 - الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط3، ص19
- 9 - مهدي بازركان، القرآن في مسار تطوره، في تحليل البنية اللفظية والموضوعية، تر: كمال السيد، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، دط، دت، ص241
- 10- نفس المرجع، ص237، 243
- 11- نفس المرجع، ص242
- 12 - عيسى بن سديرة، الخصائص التركيبية والأسلوبية بين المكي والمدني من القرآن الكريم، أطروحة دكتوراه بكلية الآداب واللغات بجامعة الجزائر، سنة 2002/2003، ص307
- 13- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق - بيروت - القاهرة، ط17، 1412 هـ، ص261/1
- 14- سعود بن عبد العزيز الطريفي، الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، دار عالم الفوائد، السعودية، ط1، 1419، ص392
- 15- سيد قطب، في ظلال القرآن، ص
- 16- ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، ص118
- 17 - ينظر نفس المرجع، ص394
- 18 - محمود يعقوبي، المنطق الفطري في القرآن الكريم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 2000، ص40
- 19 - نفس المرجع، نفس الصفحة.
- 20- ينظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، ص42
- 21 - عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، دار مسكلياني، تونس، ط1، 2011، ص42.
- 22- محمود يعقوبي، المنطق الفطري في القرآن الكريم.
- 23- نفس المرجع
- 24- ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تح: الدكتور رشاد سالم مجامعة محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط2، 1411 هـ - 1991 م، ص487/8
- 25 -القاسمي، محمد جمال الدين، دلائل التوحيد، تحقيق: خالد عبدالرحمن العك، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، 1412 هـ.
- 26 - ابن عاشور، التحرير والتنوير، 32/21
- 27- عيسى بن سديرة، الخصائص التركيبية والأسلوبية بين المكي والمدني من القرآن الكريم ص278
- 28- سيد قطب، في ظلال القرآن، ص3629/6
- 29 - مهدي بازركان، القرآن في مسار تطوره، ص234
- 30- نفس المرجع، ص234.

- 31 - محمد مشبال، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ، مقارنة بلاغية حجاجية، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2015، ص67
- 32 - ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة عقائد الملة، مع مقدمة وشروح تحليلية للمشرف على المشروع محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص80.
- 33 - سيد قطب، في ظلال القرآن، ص3/1306
- 34- نفس المرجع، ص3/1180.
- 35- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي بيروت لبنان، ط2، 2007، ص198
- 36 - الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، د،ت ص94/1
- 37- ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر - تونس، د.ط، 1984 هـ، ص99/4
- 38 - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص4/172
- 39 - الزمخشري، الكشاف،: دار الكتاب العربي - بيروت، لبنان، ط3،، 1407 هـ، ص4/527
- 40 -ابن عاشور،التحرير والتنوير،9/254
- 41- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص6/163 .
- 42- ابن عطية،المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح، عبد السلام عبد الشافي محمد،دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان: ط1، 1422 هـ ، ص1/513.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- 1 - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن السيوطي تح: محمد أبو الفضل إبراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط1، 1974 م
- 2 - البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دط، د ت ،
- 3 - الطباطبائي، تفسير الميزان ، مكتبة الأعظمي ، بيروت، لبنان، ط
- 4 - أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، لبنان، د.ط، د.ت،
- 5 - الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط3،
- 6 - مهدي بازركان، القرآن في مسار تطوره، في تحليل البنية اللفظية والموضوعية، تر: كمال السيد، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي ، د.ط، د.ت ،

-
- 7 - عيسى بن سديرة، الخصائص التركيبية والأسلوبية بين المكي والمدني من القرآن الكريم ، أطروحة دكتوراه بكلية الآداب واللغات بجامعة الجزائر، سنة 2003/2002،
- 8 - سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق - بيروت - القاهرة، ط17، 1412 هـ،
- 9- سعود بن عبد العزيز الطريفي، الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، دار عالم الفوائد، السعودية ، ط1، 1419،
- 10 - محمود يعقوبي، المنطق الفطري في القرآن الكريم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 2000.
- 11- عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، دار مسكلياني، تونس، ط1، 2011.
- 12- ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تح: الدكتور محمد رشاد سالم جامعة محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط2، 1411 هـ - 1991 م،
- 13 -القاسمي، محمد جمال الدين، دلائل التوحيد، تحقيق: خالد عبدالرحمن العك، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، 1412 هـ.
- 14 - محمد مشبال، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ، مقاربة بلاغية حجاجية، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2015.
- 15 - ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة عقائد الملة، مع مقدمة وشروح تحليلية للمشرف على المشروع محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، لبنان، ط1، 1998،
- 16- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي بيروت لبنان ، ط2، 2007.
- 17 - الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، دت
- 18 - الزمخشري، الكشاف ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1407 هـ.
- 19- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح، عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان: ط1، 1422 هـ.
